الفصل السادس والعشرون

بعد المدرسة

جرينا مع الولد في الكلام عن العلم والتربية منذ ولادته، بل قبل ولادته. إلى أن كبر ونما، ودخلنا به إلى ساحة المدرسة، وذكرنا له العلم، والدين، والوطن. فليسمح لنا القراء الآن بإيراد فصل كتبناه فيما مضى إجابة لطلب أديب من أدباء العصر. كان له شقيق في المدرسة، فأحب أن يخاطبه يوم أتم الدراسة، وختم العلم، وخرج من المدرسة ناجحا غانما بما يكون له تبصره في الحاضر، وتذكرة في المستقبل. وهو كلام نزفه إلى كل ناشئ من طلبة هذه الأيام ممن قضوا أيامهم في المدارس، وهم يتأهبون لدخول مدرسة العالم الكبرى، راجين أن تكون نصيحتنا مقبولة، وخدمتنا نافعة. وهو:

"يا أخي لقد بلغت السنة الثامنة عشرة من سنى حياتك، والسادسة من أيامك المدرسية، وهي العمر الحقيقي الذي عشته إلى الآن؛ إذ كفلك أبواك، ومعلموك بآداب الدينظو والعلم. وشققا عقلك وفتحوه للنور، فعرفت الواجب وأدركت الحقوق، وما أزيدك بأهمية ذلك علما.

والواجب يا أخي عند المرء ينقسم إلى أقسام: وهي ما يجب عليه نحو هيأة الاجتماع عموما، وما يجب عليه نحو وطنه، وما يجب عليه نحو نفسه.

وكما تنقسم فروضه تتجزأ أيضا حقوقه، وكما أن واجباته ثلاثة أقسام فحقوقه أيضا ثلاثة: وهي حقوقه علي الهيئة الاجتماعية، وحقوقه علي الوطن، وحقوقه علي نفسه. ويلي هذه الحقوق والواجبات حقوق وواجبات أخري

إضافية: وهي حقوقه علي أبويه، وعائلته، والأفراد الذين يعاملهم، وواجباته نحوهم.

وهذه يتعلمها المرء بسنة الطبيعية، وبدرس الشرائع. أما الأولى: فلا يصل إلى فهمها فهما حقيقيا، والعمل بها عملا حسنا إلا من سمت مداركه، وعلت أفهامة. وإنني متوسم بك الذكاء والنجابة، وبعد الفهم، وكرم النفس، وحب النظر في الأمور، ومعرفة ما يجب عليك ويحق لك. فلذلك أرجو أن أرى منك فتى يقوم بما يجب عليه، ويستولى علي ما يحق له، فلا تخيب أملي بك.

ولقد كنت أود أن اشرح لك ما هيه ما ذكرته من الفروض والحقوق كل علي حدته. لولا ما أخشاه من ملل الحضور، وما أعلمه من ذكائك وإدراكك، مما آمل معه أن تكون قد أدركت مغزى كلامي، وأن تبحث البحث الدقيق عما لم يتجل لك معناه. فإن السامع إذا لم يترو معني ما يلقي عليه، وينقب عن الغاية منه، كان كالحجر الذي يسيل عليه الماء مارا إلى سواه، فلا ينتفع به. وإذا فهم المعني، وأدرك المغزى، ولم يعمل بهما كان كالوعاء المثقوب الذي لا يضبط الماء إلا ريثما ينزف منه. ولقد ضربت لك هذين المثلين لتعلم أن الإنسان إنما وجد ليبحث ويدأب، فيعلم ويعمل. فالعالم إن لم يكن عاملا كان كالشجرة التي لا تثمر والتي لا تستحق إلا أن تقطع وتلقي في النار.

وأنني خبرت الأيام، ودرست الطباع والأخلاق، فرأيت أكثرها قد فسد وتغير، وصار الصالح بين الناس أعز من بيض الأنوق، والكريم الحر رابع المستحيلات، فرأيت أن استلفت نظرك الحاد، واجتذب فؤادك الملتهب بدم الصباء إلى وصايا أحب أن ألقيها عليك، فإذا عملت بها نشأت بين قومك وآلك صالحا كريما حرا يشار إليك بالبنان.

يا أخي. لقد كان يومك فريد في عقد عمرك، ظهر فيه من نجابتك، وتوقد

ذهنك، وذكائك ما صفقت لك معه الأيدي، وشخصت به الإبصار إليك، وحامت الأنظار حولك، وانطلقت الألسنة تقول: ما شاء الله. فلقد كللت مساعيك المدرسية بالنجاح، فكال رأسك البهي بإكليل الاستحقاق والظفر. ولست أكتمك أن قلبي قد صفق طربا، وأن عيني أغر ورقتا بدمعة الفرح لما سمعت اسمك العزيز ينادى به في مقدمة الناجحين، ورأيتك سائرا في طالعة المجتهدين المفلحين، وبصرت بالجم الغفير يصفق ويضج استحسانا لما كلمك به الرئيس، ولكن لا يستفزك هذا النصر، ولا تأخذك الخيلاء والكبر.

وأعلم أن العاقل من اغتنم يوم النصر، وساعة الظفر لإعداد راحة المستقبل، وهناء الغد المقبل. والحكيم لا يسكره الانتصار، ولا يلعب به الكبر والافتخار. نعم إن سبقك في مضمار الدرس يعد سبقا وفوزا، ولكنهما مجازيان ليس إلا. فإن شئت أن تحققهما فأفعل ما أوصيك به.

يا أخي. أول ما أوصيك به السلوك بحسب القواعد، والأصول التي ربيت عليها. والآداب التي كفلك بها أبواك، وأساتذتك. واحترام الأديان، وعدم التعصب، وليكن ضميرك قاضيا عليك، وفطرتك قائدا لك، وشاور في بدء كل أمورك عقلك، واستشر فؤادك، ولا تصغ كثيرا إلى أقوال الناس، بل أعمل بما جبلت عليه. وبما تدلك إليه الفطرة الطبيعية، فإنها في أكثر الأحيان لا تخدع، وقلما سقط من حسنت فطرته وكان متبعا لإشارتها.

وعليك بإدمان المطالعة واستقصاء الأحوال التي تشغل الهيئة الاجتماعية، والسعي ما أمكنك وما سمح به سنك إلى حلها بالطرق السلمية. وعليك بنصح من هو دونك، واستنصاح من كان فوقك، واحترام آراء الناس ومجاراتهم علي ما يريدون مما لا يمس شرفك، ولا يخدش اسمك، ولا يقلق راحة ضميرك. وإياك أن تدخل فيما لا يعنيك أمره، وأن تشتغل بصغائر الأمور لئلا تلهيك عن العظائم،

ولا تطلب الشهرة والكسب إلا من كل طريق محمود، وطريقة شريفة. وأحذرك الكلام عن الناس بدون الحرص الشديد والانتباه الدائم؛ لئلا يستعدوك ويحطوا من قدرك، ويصبح اسمك مضغة في أفواه اللئام. واحذر معاشرة من لم يشرف عنصره، وتسم غايته، وتتنزه خلاله عن كل منكر. وأهرب من السكير، والمقامر، والنمام. ولا تجالس الثرثار، والمهذار. ولا تستعمل الحيلة، والمواربة. وكن كثير البحث قليل المراء. واجتنب الحدة في جدالك وخطابك، وكن كريما جوادا، ولكن لا تكن مسرفا. وانظر قبل أن تسخو بما عندك إذا كان من تجود عليه يستأهل جودك. وإذا أعطيت فأكتم عطاءك ولا تفاخر بالحسنة فإن بهاء الإحسان أن يكون سرا. وإياك أن تكون أمام القوي المستبد جبانا لينا، أو أن تسكت عن حقك متى كان لك حق. وقابل الإساءة بالإحسان، والعنف بالملاينة، فإنك بذلك تقود الغير إلى أخلاق حسنة، وطباع مرضية. وأهجر الخمرة، وابتعد عن الملاهي، ولا تكثر من الثراء والأصدقاء. وابل قبل أن تضع ثقتك، ولا تستأمن علي سرك غير صدرك، فأن ضاق صدرك عن كتمان سرك "فصدر الذي تستودع السر أضيق". وكن رحيما شفيقا، ولكن لا تكن ضعيف الطبع كثير الميل مع الهوى، بل كن رجلا ثابت العزم، قوي الطبع، حر الإرادة. ولا تتقيد بغير الحق فإنه سيف الحر، وترس العاقل، ولأمة الحكيم. واكبح جماح نفسك وضع شكيمة لشهواتها، وكن حارسا عليها، فالنفس أمارة بالسوء. وأحذرك الدعوي فإنها آفة العلم، ووصمة عار علي المرء، وكثيرا ما تكون السبب في انحطاط شأن الرجل وسقوطه، وبغض معاشريه إياه. واستقر أقوال الحكماء والفلاسفة، واعمِل الفكرة في كل كلمة منها، وأفحصها فحصا يكفل لك حسن فهمها، ثم اعمل بما يبدو لك فيها من الحكمة واتبع فلسفتها إذا كانت صالحة. وإياك أن تعجل في الحكم، أو أن تحكم علي وهم، فأنك لا تؤمن بذلك أن تزل فتذل، وتندم حيث لا ينفع الندم. وإذا طلبت فلا تكن

مستعطيا، وإذا نهيت فلا تكن آمرا، بل كن في كل أحوالك رقيق الجانب، لين العريكة، حلو اللسان، وإذا حكمت فاحكم بالعدل والإنصاف، وساو بين الكبير، والصغير، والغني، والفقير، فإن حقوق الإنسان واحدة، والغني والفقر لا يؤثران في الحقوق. وبالجملة فأنني أوصيك بأن تعامل الناس بما تريد أن يعاملوك به. ثم دفع إليه كتابا في لغة لا يعرفها وقال. وهذا يا أخي رمز عن أن الحياة كلها أسرار ومعميات، وكلما فككت رمزا وكشفت سرا بدت لك من ورائه أسرار ورموز أصعب منها وأدق، فاجهد في فهم ما ألقيه عليك من هذا القبيل وتدبره. والله المسئول في أن يكلاك ويرعاك بعين عنايته. والسلام"